دراسة عن تيطري للمستشرق الفرنسي ألكسندر جولي

A pamphlet about Titteri of the French orientalist Alexandre Joly

عبد الرزاق تموميات [1]

[1] جامعة يحي فارس بالمدية، raziktoum@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 23 /2022/05 **تاريخ القبول:** 29 /2022/05 **تاريخ النشر:** 20 /2023/01

ملخص:

أردنا من خلال هذه الورقة إثراء الجانب التاريخي لمنطقة تيطري خلال الفترة الاستعمارية، اعتمادا على دراسة ذات طابع محلي للمستشرق الفرنسي ألكسندر جولي (1870– 1913م)، وتكمن أهميتها في تركيزها على ما تزخر به المنطقة من إمكانيات اقتصادية، دون أن يهمل الجوانب الأخرى المتعلقة بالخصائص الطبيعة والبشرية، ويمكن اعتبار هذه الدراسة امتدادا لسلسلة التقارير التي أعدها مستشرقون وضباط مكلفون بالشؤون الأهلية ورحالة ومستكشفون، كان الهدف منها استكشاف الإمكانيات التي تتوفر عليها وتسخيرها خدمة لمصالح الاستعمار الفرنسي.

الكلمات الدالة: تيطري، ألكسندر جولي، الجانب الاقتصادي، الاستعمار الفرنسي.

Abstract:

Through this paper, would like to enrich the historical aspect of the Titteri region during the colonial period, based on a study of a local nature by the French orientalist Alexandre Joly (1870-1913), which is important in focusing on the economic potential of the region, without neglecting the other aspects. Concerning natural and human characteristics, this pamphlet can be considered an extension of a series of reports prepared by orientalists, officers in charge of civil affairs, travelers and explorers, the aim of which is to explore the resources available to it and harness them to serve the interests of French colonialism.

Keywords: Titteri; Alexandre Joly; the economic sides; French colonialisation.

مقدمة:

ظهرت الكثير من الدراسات التي عكف المستعمرون على تأليفها اتخمت رفوف المكتبات، وطرقت تاريخ وجغرافية الجزائر عبر مختلف العصور، ذلك أن الإدارة الاستعمارية في الجزائر شجعت على حركة التأليف والنشر، وبحكم تشعب المواضيع فقد ركزنا على الكراريس ذات الأهمية نشرت من طرف قادة عسكريين ومستشرقين ومسؤولي المكاتب العربية ورحالة ومستكشفين وجواسيس، وقد اكتست هذه الكتابات أهمية بالغة بالنظر لما احتوته من معلومات غزيرة، ومن بين ما لفت انتباهنا الدراسة التي قام بها المستشرق الفرنسي ألكسندر جولي Alexandre Joly تحت عنوان: Étude sur le Titteri (دراسة عن تيطري) وهي كراسة ذات صبغة محلية، جرى تأليفها دعما لجهود الجمعية الجغرافية للجزائر وشمال إفريقيا المستعمرة، تكونت من 88 صفحة من الحجم المتوسط (طبعة الجزائر 1906م).

إن ما دفعنا للإشارة إلى هذه الدراسة هو أهمية المعلومات التي تضمنتها عن المدينة التي تعتبر مشروع بحثنا، وقد أحاطتنا خبرا بالكثير من المعلومات في مختلف الجوانب منذ بداية الغزو الفرنسي لها وحتى عام 1906م، ويمكن القول أن هذه الدراسة التي بين أيدينا هي أقرب إلى تقرير منها إلى مجرد انطباعات عابرة، فما هي أهم الانطباعات التي سجلها جولي في تقريره؟ وما هي أهميتها التاريخية؟

1. التعريف بالمؤلف:

ألكسندر جولي Alexandre Joly (1870-1913م) هو مستشرق فرنسي عاش في الجزائر، عمل أستاذا في مدرسة الآداب بمدينة الجزائر سنة 1896م ثم في قسنطينة سنة 1901م، ثم أستاذا كرسيا للغة العربية سنة 1907م في ذات المدينة، تمتع بثقافة واسعة ومعرفة لغوية باللهجات المحلية، وقام برحلات كثيرة في أنحاء الجزائر واهتم بالتراث الجزائري خاصة الشعر الشعبي والغناء وعمل على جمعه وتبويبه[1] مستعينا بالكثير من الروايات الشفوية لجزائريين أملوها عليه لكنه لم يشر إلى أسمائهم، و ذكر اسم الأستاذ بمدرسة الجزائر عبد الرزاق الأشرف الذي ساعده في ترجمة بعض تلك الأشعار[2] التي نشرت في المجلة الإفريقية، كما زار تونس والمغرب الأقصى ضمن البعثة الفرنسية إلى طنجة لغرض البحث والاستكشاف، فجمع معلومات غزيرة عن الجيولوجيا والتاريخ والعادات والتقاليد والتراث الشعبي[3]، كما اهتم أيضا

بتأليف كراريس في مواضيع مختلفة، فكتب عن منطقة تيطري وما جاورها وعن التصوف والطرق الصوفية التي رأى أنها «...أدّت مهمتها و آن لها أن تختفي...»[4]، نشر العديد من الدراسات عن تونس والمغرب الأقصى والجزائر التي خصّها بمؤلفات كثيرة منها:

- Étude sur le Titteri دراسات عن تيطري
- La plaine des Beni-Slimann et ses abords سهل بني سليمان وضواحيه
- remarques sur la poésie moderne chez les nomades algériens ملاحظات عن الشعر العصري عند البدو الجزائريين (المجلة الإفريقية 1904م).
- Chansons du répertoire algérois أغاني من التراث الجزائري (المجلة الإفريقية 1909م).

2. أقسام الدراسة:

يمكن تقسيم الدراسة التي بين أيدينا من حيث المواضيع التي تضمنتها إلى مقدمة وثلاثة أقسام رئيسية واستنتاج عام و خريطة في ملحق مستقل في آخر الدراسة، وتضمن كل قسم جملة من الملاحظات والشروحات مرقمة ومرتبة مع شرح وجيز ومركز لكل عنصر أو خاصية، نذكرها بالشكل التالي:

2.1. مقدمة الدراسة:

وضح فيها المؤلف باقتضاب (سبعة أسطر) الهدف من هذه الدراسة، وهو «...التنويه بأهميتها الاقتصادية...»[5].

2.2 . القسم الأول[6]:

يتضمن لمحة عامة للمنطقة ووصف خصائصها الطبيعية وموقعها الجغرافي والطقس السائد والغطاء النباتي والموارد المائية والتنوع الإيكولوجي، وذكر بعض المعلومات عن الطرق الرئيسية التي تصل المنطقة بغيرها من المناطق، فهي ذات موقع استراتيجي بإشرافها على الجهات الأربع للجزائر، إضافة إلى تنوع تضاريسها وذكر بعض خصائصها الجيولوجية مستعينا ببعض

الدراسات المنجمية التي أكدت وجود كميات من الفوسفات في المنطقة و صخور من الملح في الواد المالح والربعية وواد الحكم (سغوان حاليا) وحرملة وتيقازة [7].

ثم قدم شرحا مركزا للخصائص الجيولولوجية والتكتونية للكتل الصخرية في المنطقة، وقد تعرضت عبر العصور إلى عوامل الحتّ والتعرية، وأشار إلى الخصائص المناخية وحالة الطقس التي تتدرج من مكان إلى آخر حسب الارتفاع أو الانخفاض من مستوى سطح البحر، وتأثير ذلك على الإنتاج الزراعي في المنطقة مستشهدا بقياسات لدرجة الحرارة خلال فترة معينة (جوان 1904م)[8].

أما الغطاء النباتي فتتحكم فيه الوضعية الهيدروغرافية، لذلك تنتشر في الشمال أشجار الصنوبر والأرز الحلبي والعرعار، ثم تقل كلما اتجهنا نحو الجنوب ونجدها بشكل متناثر وفي حالة متدهورة ويعود السبب حسبه إلى الأهالي الذين يستنزفون الثروة الغابية لبيع الأخشاب في أسواق قصر البخاري، وأضاف إلى ذلك الرعي الجائر، وأشار إلى أن وضعية الغطاء النباتي تراجعت بشكل ملفت مقارنة بالقرن 16م، حيث كانت تغطي الغابات الكثيفة جزءا شاسعا من المنطقة وتنوعت فيها الأنواع الحية، خاصة في الأراضي التي ترتفع بتسعمائة إلى ألف مترا فوق سطح البحر[9].

وعن الثروة المائية فتكاد تكون المياه الجوفية هي المصدر الأساسي في المنطقة، لكنها قليلة في المناطق الشمالية لتيطري بسبب الصدوع الأرضية وهي بذلك منخفضة التدفق، في حين نجد مناطق أخرى أكثر وفرة في شلالة العذاورة وعين بوسيف وسانق ومجبر، وتستخدم هذه المياه في الشرب و الري، وعموما فهناك اكتفاء منها وتتحكم في ذلك مياه الأمطار والثلوج، إذ شهدت الينابيع منسوبا مرتفعا جدا خلال عام 1899م وهو موسم وفرة بامتياز[10].

أما التنوع الحيواني فلا يبدو وفيرا فهو مرتبط بالمناخ، لكن ذلك لم يمنع من ظهور بعض الثدييات كابن آوى والثعالب والضباع والأرانب، والملاحظ هو عدم وجود السنوريات والغزلان لأنها انقرضت منذ قرنين على الأقل، أما الطيور فتوجد الصقور والنسور والشحرور والحجل والغربان والحمام والعقعق[11].

2.3. القسم الثاني:

قدم لنا جولي وصفا دقيقا لسكان المنطقة رغم أن الفرنسيين غالبا ما يركزون على المسألة العرقية وعدم التجانس الإثني بين سكان الجزائر على وجه العموم، وفي هذه الدراسة أشار إلى وجود العرب الذين شكلوا الأغلبية في المدن، أما البربر فهم أقلية غالبيتهم يعيشون في الجبال، وينقسمون إداريا إلى منطقتين[12]:

2.3.1منطقة مدنية:

- المفاتحة، أولاد مختار الشراقة، أولاد معرف (بلدية قصر البخاري المختلطة)
- أولاد حمزة (بلدية قصر البخاري كاملة الصلاحيات)
- الدوائر، الربعية (بلدية البرواقية المختلطة).

2.3.2 منطقة عسكرية:

- أولاد علان، تيطري، السواري، الدهيمات (بوغار)
- العذاورة الشراقة والغرابة.

وهناك أيضا اليهود لكن أعدادهم قليلة ومعظمهم من التجار ويؤدون دور الوسطاء بين الأهالي والمستوطنين من الفرنسيين والإسبان والسويسريين والإيطاليين الذين كانوا يستقرون في قصر البخاري والبرواقية وشلالة العذاورة والدوائر وغيرها بأعداد متفاوتة[13]، ويمارسون أنشطة مختلفة كالحدادة وأعمال البناء والخياطة وطحن الحبوب[14].

وتكلم عن زي سكان المنطقة وطرق عيشهم و الطابع العمراني في السائد وطرق البناء التقليدية والحديثة سواء في المدن أو الأرياف، ودور المستوطنين في إدخال طرق البناء العصري في بعض المناطق[15]، وكانت المساكن قبل ذلك في الغالب تتكون من طابق واحد[16].

أما الأمن فلا يتوفر بالشكل المطلوب خاصة قرب اولاد معرف ذلك أن اللصوص كثيرا ما يفلتون من العقاب رغم وجود محاكم في المنطقة في قصر البخاري وبوغار والبرواقية، وتكثر أعمال السلب والنهب في وقت الحصاد، والملاك في هذه المناطق يحتاجون لحماية أملاكهم إلى بنادق، وأشار إلى أن بعض القبائل كأولاد علان والعذاورة مثلا بدؤوا يتحولون تدريجيا من قطاع طرق إلى مزارعين بفضل جهود بعض الأعيان والقياد الذين أرسلوا بعض المجرمين واللصوص إلى السجون عقابا لهم، في حين ينتشر الأمن بشكل ملفت في بعض المناطق

كأولاد مختار والدواير ومفاتحة، ولجا الكثير ممن توفر لديهم المال إلى إقامة مساكن عصرية وإسطبلات ومتاجر لحماية أملاكهم من غارات اللصوص[17].

2.4. القسم الثالث:

2.4.1. النظام الاقتصادي:

أ. ملكية الأرض والمردود الزراعي:

ملكية الأرض في المنطقة متشابكة في جميع أنحاء تيطري، ففي المناطق ذات الحكم العسكري يمنع نقل ملكية الأرض من طرف إلى آخر، وهناك جزء كبير من الأراضي في المفاتحة وأولاد حمزة والدواير في أيدي اليهود وبني ميزاب بعد شرائهما من أصحابها، وهناك أراضي شاسعة في أولاد علان والعذاورة ملكيتها جماعية، والواقع أن الملكية عرفت الكثير من التطورات في السنوات الأخيرة (أواخر القرن 19م وأوائل القرن 20م)، والكثير من الأراضي وضعها القانوني لم يجد حلولا فبقيت الأوضاع تراوح مكانها، وتسود هذه الأراضي زراعة القمح والشعير اللذين يختلف مردودهما الزراعي بحسب نوعية التربة، ففي بعض الأراضي قرب قصر البخاري ينضج المحصول في شهر مارس، أما في مناطق أخرى كعين بوسيف فينضج في منتصف شهر أفريل[18].

يسيطر اليهود على تجارة الحبوب فيقومون بشراء المحصول وينقلونه إلى البليدة لتزويد المطاحن والمصانع بهذه لمادة الحيوية، رغم أن اليد العاملة تتشكل أساسا من الأهالي (البدو) الذين يقومون بأعمال مضنية مقابل عوائد مالية ضعيفة لا تسد الحاجة وتأتي بدرجة أقل زراعة الذرة في الوديان لتوفر المياه في واد الحكم مثلا، إضافة إلى محاصيل ذات مردودية ضعيفة كالحمص والعدس والفول، رغم أنها لا تحتاج إلى كميات وفيرة من المياه، تسود أيضا زراعة الخضر في جنوب تيطري كالبطاطا واللفت والقرع والبطيخ ونعني بذلك عين بوسيف والعذاورة وأولاد أمعرف والربعية[19].

ب. ربية الأنعام:

توجد في المنطقة أعداد منها لكنها ليست بالوفرة المطلوبة، يتم إرسالها في فصل الشتاء إلى مراعي رحمان والصحاري وأولاد نايل وأولاد سيدي عيسى، ولا تعود إلا بحلول فصل الصيف خلال موسم الحصاد، أما الماعز فأعداده قليلة وهي عرضة للنفوق بسبب قلة الإمكانيات، ومثال ذلك ما حصل سنة 1904م بسبب سوء الأحوال الجوية، و تعتبر كل من سيدي عيسى والجزائر أسواقا رائجة لتجارتها، أما الجمال والخيول والبغال والحمير فلا تتوفر إلا بأعداد قليلة وبخاصة عند العذاورة وأولاد مختار والدوابر وأولاد علان حيث المراعي الواسعة المنبسطة، إضافة إلى الخنازير التي تتوفر بأعداد قليلة عند الفلاحين الأوربيين في عين بوسيف خصوصا[20].

ج. الصناعة:

تنتشر في المنطقة الصناعة التقليدية المنزلية كالفخار والأواني والنسيج وأكياس الحبوب والطواحين اليدوية والحصائر والسلال، أما الطواحين المائية التي امتلكها مستوطنون أوربيون فمردوديتها جيدة رغم أن السميد يتم جلبه بشكل أساسي من مطاحن البليدة، كما انتشرت صناعة الجبس والطوب في قصر البخاري والدوابر وشلالة العذاورة وتقازة[21].

د. التجارة والأسواق:

أما الأسواق الأسبوعية فهي ذات حركية، لكنها قليلة الأهمية إذا ما قورنت بغيرها من الأسواق، وترتبط بأيام معينة من الأسبوع ثلاثة الدوابر (الثلاثاء) حد الربعية (الأحد) شلالة العذاورة (الخميس) عين بوسيف (الجمعة) قصر البخاري (الإثنين)، وتعرض الكثير من المنتوجات كالصوف والجلود والتمور والإبل والشحوم والبذور والفواكه والخضر، كما يبيع اليهود والأمازيغ العطور وغيرها، ويأتي سوق قصر البخاري الأهم بين أسواق تيطري كونه ملتقى للتجار من منطقتي التل والإستبس[22].

هـ. المواصلات:

وضعية الطرق سيئة للغاية إذا ما قورنت بغيرها من المناطق، فهي بدائية وزلقة بسبب كثرة الطين، وهناك طرق تبدو سالكة إلى حدّ ما أهمها:

- شلالة العذاورة – قصر البخاري عبر عين بوسيف

- الشلالة – بني سليمان
- الشلالة – حد الربعية – البرواقية
- عين بوسيف – البيرين
- عين بوسيف — حرملة – الربعية – البرواقية
- قصر البخاري – ثلاثة الدوابر.

تتعرض المسالك في فصل الشتاء إلى التلف ويصبح من الصعوبة سلوكها بسبب الطين والمستنقعات، مما يجهد الدواب ويجعل كلفة النقل ترتفع إلى أضعاف، فاستئجار البغال بستة فرنكات والحمار ثلاثة فرنكات لقطع مسافة من البرواقية إلى شلالة العذاورة يحمل البغل قنطارا من الأثقال، أما الحمار فيحمل ما بين 50 و60 كلغ مع إضافة فرنكا واحد كمصروف للسائق و شراء الطعام للدواب، واقترح جولي الاهتمام بصيانة الطرق من وجهة النظر الإستراتيجية ضمانا لخدمات اقتصادية أفضل، ولتسهيل تحرك القوات الفرنسية في المنطقة[23].

وخلص جولي في الأخير إلى استنتاج مختصر ضمنه رأي مفاده أن منطقة تيطري تتوفر على مقومات جديرة بالاهتمام، من حيث الموقع يؤهلها لأن تكون مركزا اقتصاديا واعدا للإنتاج الزراعي وتربية الأنعام على نطاق واسع[24].

3 . خاتمة:

يمكن اعتبار ما أشار إليه المستشرق جولي تقرير مفصل عن الحالة الاقتصادية للمنطقة، كلف بإعداده من طرف الإدارة الفرنسية بصفته من ضباط الحالة المدنية في الإدارة الاستعمارية، فالتركيز كان واضحا على اقتصاد المنطقة باعترافه شخصيا، ذلك أن الاستعمار استهدف استغلال إمكانيات تيطري خاصة في الزراعة وتربية الأنعام، وأراد من ناحية أخرى تشجيع عملية الاستيطان التي كانت آنذاك لا تزال ضعيفة في بعض مناطق الإقليم، وبتقديمه لمعطيات إحصائية أراد حثهم ضمنيا على الانتقال إليها واستغلالها خدمة لمصالح الاستعمار.

4. الملاحق:

ملحق رقم 1: غلاف النسخة الأصلية للدراسة

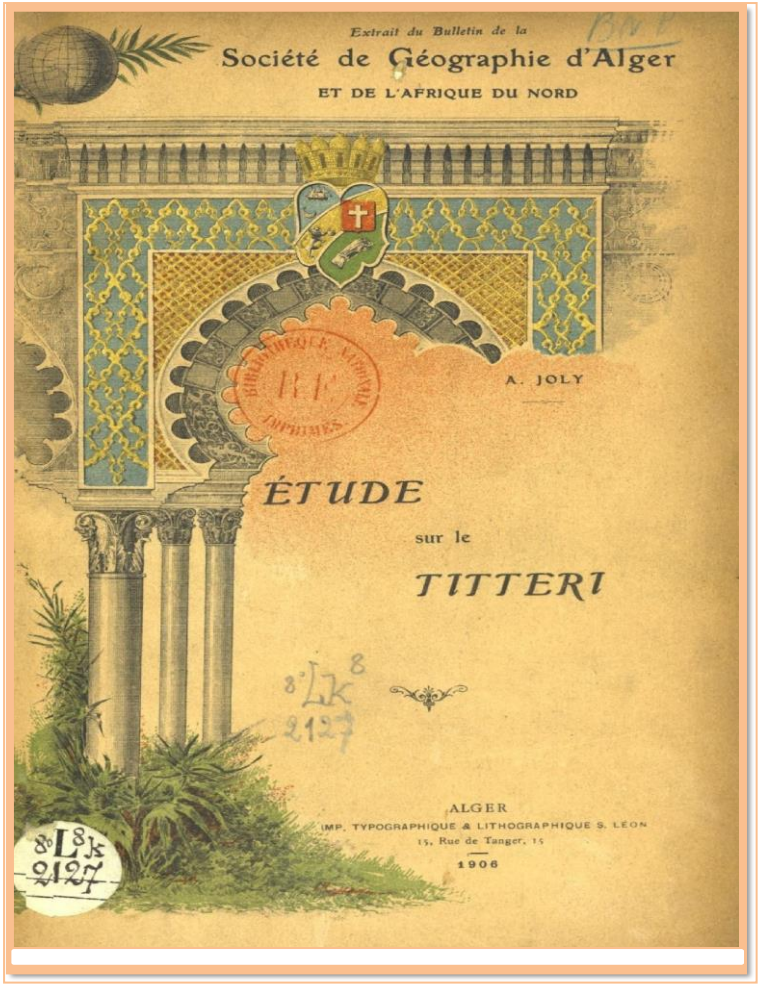

ملحق رقم 2: خريطة لقبائل وأعراش منطقة تيطري

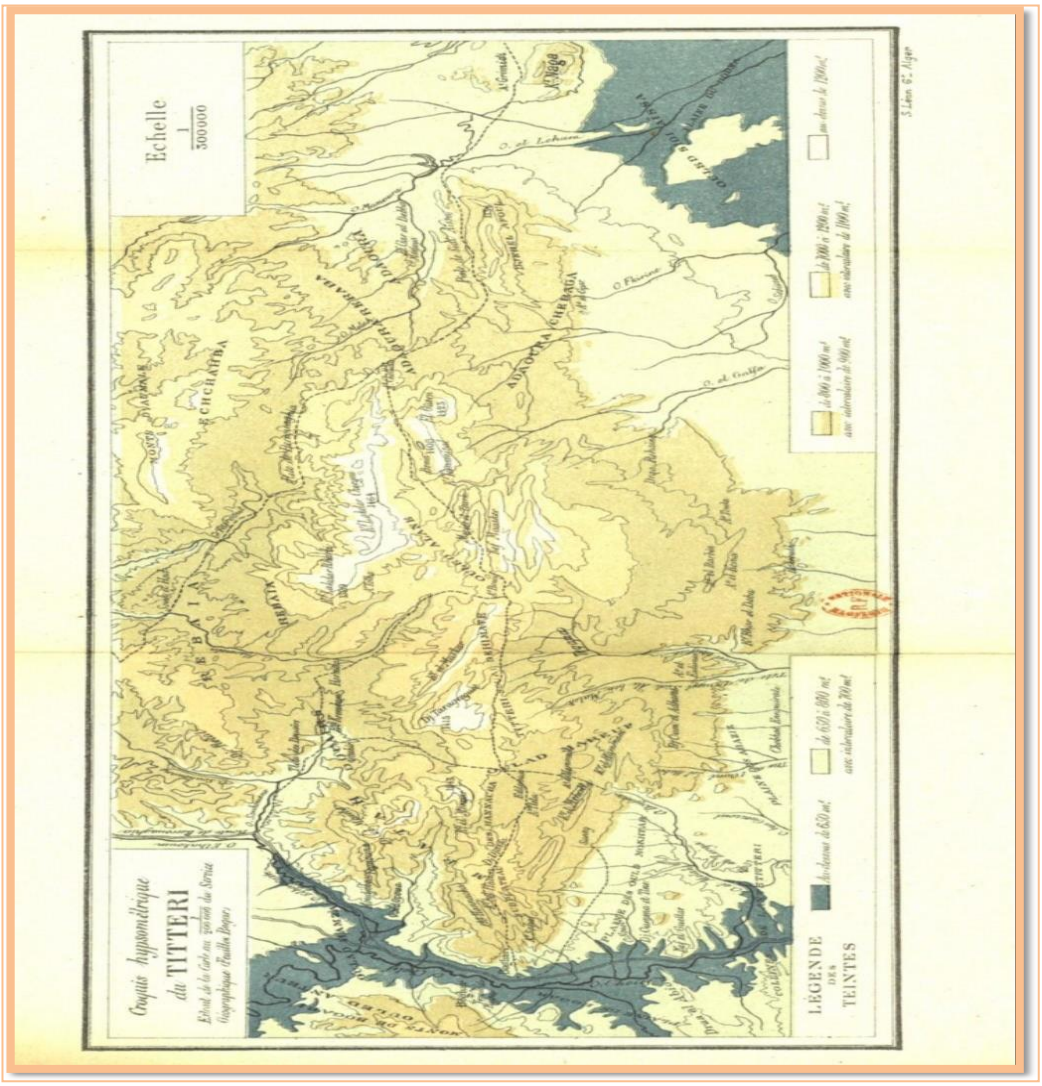

Source: Alexandre Joly, Etude sur le Titteri, imp Typographique lithographique S. Léon, Alger 1906, p. 89.

5. الهوامش:

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 8، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998م، ص 316.

[2] Revue Africaine 48eme Année, № 252-253 . Adolph Jordan Ed, Alger 1904, p 5.

[3] R. A, 57eme Année, № 288, Adolph Jordan Ed, Alger 1913, p 6.

[4] سعد الله، المرجع السابق، ج 4، ص 321.

[5] Alexandre Joly , Etude sur le Titteri, Imp Typographique & lithographique S. Léon, Alger 1906, p 6.

[6] نشر هذا القسم لأول مرة ضمن سلسلة الأبحاث والتقارير المقدمة إلى الجمعية الجغرافية الجزائرية، راجع بالتفصيل الصفحة 15 وما بعدها من هذه الدراسة:

- Bulletin de la Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, Onzième Année, Tome XI, Imprimerie Typographique et Lithographique S. Léon, Alger 1906.

[7] Joly, Op.cit, p. 9

[8] Ibid, pp. 14-15

[9] Ibid, p. 17.

[10] Ibid, pp. 26-31.

[11] Ibid, pp. 31-33.

[12] Ibid, pp. 37-38.

[13] لم يشر جولي إلى عنصر بارز لا يمكن إغفاله وهم الأتراك والكراغلة الذين يتركزون أساسا في مدينة المدية وما جاورها وعددهم معلوم وألقابهم ووظائفهم كذلك، لذلك نرجح أن يكون ذلك أمرا متعمدا منه، مع أن دراسات أخرى معاصرة لدراسة جولي أشارت إليهم بوضوح، انظر:

- Léon Cortès , Monographie de la commune de Médéa, impr. Algérienne, Alger 1909, p. 57.

[14] Joly, Op.cit, pp. 80-86.

[15] Ibid, pp. 39-44.

[16] A. Berthet, Les Naufragés de La Marie Elisabeth, G. Tequi Librairie Editeur, Paris 1883, p. 271.

[17] Joly, Op.cit, pp. 58-59.

[18] Ibid, pp.60-62.

[19] Ibid, pp. 67-68.

[20] Joly, Op.cit, pp. 71-77.

[21] Ibid, pp. 76-77.
[22] Ibid, pp. 77-78.
[23] Ibid, pp. 78-79.
[24] Ibid, p. 87.

6. قائمة المصادر والمراجع:

العربية:

- **سعد الله** (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزآن الرابع والثامن، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998م.

الأجنبية:

- **Berthet** (A), **Les Naufragés de La Marie Elisabeth**, G. Téqui Librairie Editeur, Paris 1883.
- **Cortès** (Léon), **Monographie de la commune de Médéa**, imp Algérienne, Alger 1909.
- **Joly** (Alexandre) , **Etude sur le Titteri**, Imp Typographique & Lithographique S. Léon, Alger 1906.

منشورات رسمية:

- **Bulletin de la Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord**, Onzième Année, Tome XI, Imprimerie Typographique et Lithographique S. Léon, Alger 1906.

مجلات:

- **Revue Africaine**, 48eme Année, № 252-253, Adolph Jordan Ed, Alger 1904.
- **..... ...**, 57eme Année, № 288, Alger 1913.